رسائل ابن رشد الفلسفية

Türkiye Diyanet
İslâm Araştırmaları Merkezi

رسالة
النفس

جيرار جهامي

تقديم وضبط وتعليق
د. رفيق العجم

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني
للطباعة والنشر
كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٩٩٤

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٤٩ - ٨٣٧٦٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

التقديم

ننتقل إلى رسالة ابن رشد في النفس ، وهذا المبحث سبق أن مُهِّدَ له في رسالة الآثار العلوية ، حيث تطرق الحديث للحيوان والإنسان وكيفية تركّبهما .

وهذه الرسائل من فئة الجوامع الفلسفية ، كل رسالة مستقلة عن الأخرى وهي :

السماع الطبيعي ، السماء والعالم ، الكون والفساد ، الآثار العلوية ، النفس ، ما بعد الطبيعة .

والرسائل تلخص رأي أرسطو في المجال الطبيعي أو النفسي أو الماورائي ، لكنها إبّان عرضها للرأي تقارن مع رأي الشراح وبعض من مشائية المسلمين تعلّق وتُدْخِلُ أحياناً آراء فلكية وطبية استجدت على أرسطو . بل إن ابن رشد يعمد أحياناً إلى عرض آراء من سبق أرسطو ويقارنها مع من لحقه . كما إنه ينتقد أحياناً قليلة رأي أرسطو معقبّاً بأفكار جديدة من عندياته .

وقد عمدنا إلى جعل المجموعة على خمسة أجزاء :

أولها : السماع الطبيعي .

ثانيها : السماء والعالم ، الكون والفساد .
ثالثها : الآثار العلوية .
رابعها : كتاب النفس .
خامسها : كتاب ما بعد الطبيعة .

تناولت الأجزاء الثلاثة الأولى المتعلقة بالرسائل الجانب الطبيعي وتركيب الموجودات في استنادها على عنصرين : المادة والصورة . والمادة برأي ابن رشد تمشيًّا مع أرسطو هي كما قال في (السماع الطبيعي) : « الموضوع الأقصى لجميع الكائنات الفاسدات ، ليس فيه شيء من الفعل أصلاً ولا له صورة تخصّه » . فالمادة بهذا المعنى مبدأ هيولاني لا وجود له بذاته بل بالصور التي تتعاقب عليه . ومن هذه المادة تحدث الموجودات الأولى أو الأسطقسات الأربعة : النار والماء والهواء والتراب . ثم يتّصف بكل منها إحدى الطبائع الأربع : الحار والبارد والرطب واليابس . ثم يستند إليها إحدى الحركات الطبيعية الأول. وهي من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق ، وهما حيّزان مطلوبان في هذه العناصر ، كما جاء في (السماء والعالم) .

ومن ثم تحدث الأجسام المركبة عن الأجسام البسيطة. وينتج التركيب من فعل الكيفيات الأول المضادة السابقة الذكر. فالثقل والخفة والصلابة واللين والتخلخل والكثافة واللطافة والغلظ والقحل واللزوجة والخشونة والملامسة هي الكيفيات المنتجة كما صرح في (الكون والفساد) . إذ إنها تدرك بالحس منها ما هو فاعل ومنها ما هو منفعل . الفاعل كالحرارة والبرودة والمنفعل كالرطوبة واليبوسة . أما كيف تحدث المركّبات عن الأجسام البسيطة ؟ فالجواب واحد عند

أرسطو وابن رشد معاً ، إنه الاختلاط ؛ والاختلاط بينهما يكون تبعاً لمقادير الأسطقسات التي تدخل في تركيب الأجسام . والكون يتجلى في غلبة القوى الفاعلة على القوى المنفعلة .

هي المادة بخواصها كسبب أقصى للتحريك والفعل لا بد أن يوجد إلى جانبها الصورة والغاية ، « لأن الغاية الأولى في الكون هي الصورة » كما جاء في « السماع الطبيعي » . وكأن الطبيعة هنا أشبه بالصناعة حيث يعمل الاثنان من أجل الصورة. إذ لو كانت الصورة من أجل المادة لبطل الفاعل وحلّ مبدأ الصدفة في الطبيعة .

وهذا الرأي يجرنا إلى علاقة الأسطقسات بالجرم السماوي ، إذ نجد علاقتهما بمثابة الهيولي من الصورة . إنها استعداد أو قابلية لتلقي صور المركبات تحت تأثير حركة الأجرام السماوية . وهكذا تنتهي سائر الحركات في الكون في عالمي الأرض والأجرام السماوية إلى محرك أقصى هو الفلك المحيط أو السماء الأولى ، الذي يتحرك من تلقائه حركة دورية أزلية لا يلحقها الكون والفساد . وهذا دليل أرسطوي محض .

ثم إن عالم الطبيعة يتعلق بعالم الأحياء ، والأخير يسير في تركيب مواده مسار هذا العالم . إذ إن الأجسام المتشابهة منها ما يتركب عنه شيء آخر كالمعادن ومنها ما يتركب عنه ليصير تركيباً آلياً كما يحدث في أجزاء الحيوان والإنسان ، كما جاء في « الآثار العلوية » .

كما أن للآثار العلوية كالشهب والأمطار والزلازل أثراً في تركيب الأجسام البسيطة وغير البسيطة من بين الأمور الجزئية أو المركبة . ولعلّ هذه الرسائل الأربع المتعلّقة بأبحاث الطبيعة مهدّت لأبحاث

موضوعات الحيوان والنفس التي تركها ابن رشد .

تبقى الرسالتان المتعلقتان بالنفس وما وراء الطبيعة فسنتحدث عنهما في الجزئين الأخيرين .

مصادر الرسائل وطريقة مراجعتها

نشرت الرسائل بمطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م .

وقد وقف على تحقيقها جمع من العلماء الأفاضل هم هاشم الندوي وعبدالله العلوي الخصرمي ومحمد عادل القدوسي والشيخ أحمد اليماني وزين العابدين الموسوي . وأفاد في الاستدراكات عبدالله العمادي . وكلهم تحت إمرة أمير المسلمين المير عثمان علي خان بهادر آصف جاه السابع ملك الدولة الآصفية وتحت رعاية الصدر الأعظم للرياسة العثمانية .

أما مصدر هذه الرسائل فلقد استقته دائرة المعارف من أصلين كما تشير هذه الفقرة التي وردت في الطبقة السابقة التي أشرنا إليها :

« ابن رشد رأس الأئمة المتبحرين في هذا العلم وقدوتهم خدم خدمة كافية وافية نشرتها دائرة المعارف ، وهي الرسائل المؤنقة الفائقة الجليلة القدر العظيمة المرتبة ، وكان النواب السيد حسين البلجرامي المخاطب بعماد الملك رحمة الله عليه مؤسس دائرة المعارف قد قرر نشر هذه الرسائل في هذه المطبعة وسعى لتحصيل هذه الرسائل فلم يظفر بها حتى وفاته. ثم إن مجلس دائرة المعارف قد شرى تلك الضالة المنشودة من بعض باعة الكتب إلا أنها كانت

جديدة الخط وأخرى استعارها من المكتبة الآصفية بحيدر آباد الدكن قديمة الخط أصح من الأولى في الجملة ، فقد اشتغلنا ـ أشرنا إليهم سابقاً ـ بنقلها وتصحيحها ورتبنا منهما نسخة صحيحة على حسب الاستطاعة . . . » .

ولم تشر النشرة السابقة إلى نوع الخط المعتمد في الرسائل. وقد جاءت هذه الرسائل مستقلة كل واحدة منها على انفراد يغشاها بعض الأخطاء التي استدركت من قبل دائرة المعارف واستدركنا نحن جزءاً عند التدقيق بها وإعادة ضبطها .

ومن ثَمَّ لم يتوفر لنا سوى مصوّر عن طبعة حيدر آباد فاعتمدناه ، علماً أن الطبعة فقدت من أسواق المشرق العربي منذ ربع قرن تقريباً .

ملاحظات حول ضبط النص

- لقد تم ضبط آيات القرآن وإسنادها في الحاشية مع حصرها في المتن بهلالين متوجين .
- قمنا بترجمة للأعلام .
- وضعنا للفقرات عناوين فرعية وقسّمت الفقرات وأعيد ترتيبها ليسهل على القارىء ، فهم هذا المضمون الصعب . كما أبقيت العناوين السابقة ، لكن تميّزت العناوين الجديدة بوضعها بين معقوفين [ ] .
- وتبين أن مواضيع الرسائل يمكن تصنيفها على خمسة أجزاء : صنف يتعلق بالعلم الطبيعي ، وآخر يبحث في النفس وما وراء الطبيعة .

ثم إننا قدّمنا للأجزاء كلها وألحقناها بفهارس للمصطلحات والأعلام والمحتويات .

وأخيراً نتمنى من الله التوفيق والعون ، والدعاء لابن رشد الحكيم علامة عصره الفيصل بين طريق العقل المبين والطرق الأخرى .

محتوى رسالة النفس الرشدية

توزّعت رسالة النفس عند ابن رشد على قوى النفس التقليدية التي أوردها أرسطو . واختص أبو الوليد بنهج متسلسل سلك فيه الانتقال من تركّب الأجسام من هيولى وصورة ، على ما جاء به في السماع الطبيعي ، مروراً بالسماء والعالم ، حيث معالجة طبيعة المادة الأولى ، وبالكون والفساد في كيفية تولد الأجسام المتشابهة ، انتقالاً إلى فعل الأجرام السماوية وتأثيرها في الاختلاط على ما جاء في الآثار العلوية . وبهذا يصل ابن رشد إلى تصوير عملية التكوّن الحيواني والإنساني معتبراً الأجسام الآلية لها حرارة مناسبة مكوّنة ، آلية . وهنا يبلغ التعريف الأرسطوي والمشائي مبلغه ، بأن النفس صورة لجسم طبيعي آلي .

وقد ضمّت الرسالة الفقرات الأساسية المعروفة في قوى النفس ، هذه النفس الواحدة في الموضوع المتعدّدة القوى .

والمُلفت للنظر موقف ابن رشد القائل بأن النفس الناطقة متصلة غير مفارقة في النفس الفردية ، أما فيما يخصّ الصور بما هي صور فهي مفارقة ، لا بما هي صور هيولانية . وقد عالجت الرسالة الفقرات الآتية :